

المجلد: 08/ العدد 08 ديسمبر (2024)، ص.ص. 122-131

الدراسات الأدبية المقارنة محاولة البحث عن براداييم جديد Comparative Literary Studies Try to find a new paradigm

أ.د بولعشار مرسل
boulacharmrsl7@gmail.com
جامعة تيسمسيلت
(الجزائر)

أ.د فتح الله محمد*
fathallah.mohamed@univ-tissemsilt.dz
جامعة تيسمسيلت
(الجزائر)

تاريخ النشر: 2024/12/02

تاريخ القبول: 2024/10/04

تاريخ الاستلام: 2024/07/03

ملخص:

يهدف هذا البحث الى رصد مبسط لواقع الدراسات الأدبية المقارنة في ظل التطورات الحاصلة فيها. وتبسيط الضوء على البراداييم الجديد والإبدالات المعرفية الحاصلة في المجال، وتشابك الدرس الأدبي المقارن بتخصصات مختلفة، وهي أحد القضايا المركزية في خطابنا النقدي. ولعل اختيارنا لهذا الموضوع نابع من التراكم المعرفي الذي شهدته المدرستين الفرنسية والأمريكية في الأدب المقارن، وضمن مسار البحثي للاتجاهين بهدف ملائمة طبيعة علاقة الأدب المقارن بالعلوم الأخرى وإضاء مفاصلها، وأثر التجريبتين على النقد الأدبي. ودور الدراسات البينية وتعدد التخصصات في إغناء الدرس المقارن والوصول به إلى التكامل المعرفي.

كلمات مفتاحية: الأدب المقارن؛ الاتجاه الفرنسي؛ الاتجاه الأمريكي؛ براداييم؛ تخصصات مختلفة؛ التكامل المعرفي.

Abstract:

This research aims to simplify the reality of comparative literary studies in light of the developments taking place. Highlighting the new paradigms and epistemological changes taking place in the field, and the intertwining of comparative literary study with different disciplines, is one of the central issues in our critical discourse. Perhaps our choice of this topic stems from the accumulation of knowledge witnessed by the French and American schools in comparative literature, and within the research path of the two directions with the aim of touching the nature of the relationship of comparative literature with other sciences and illuminating its joints, and the impact of the two experiences on literary criticism. And the role of the pearl.

Keywords: Comparative literature; French trend; American trend; paradigm; different disciplines; cognitive integration.

تمهيد:

يتميز الافتتاح على الآخر بتنوعه، فهو ليس أسلوباً بسيطاً يطبق في مجال الأدب، بل إنه يعكس حالة ذهنية منبئة على الفضول، والذوق والميل للتوليف، والافتتاح على الظواهر الأدبية مهما كان مكانها وزمانها ولغاتها. إن تنوع الأدب المقارن يكمن في حركته الدائمة، وفي تنوع التقاليد الفكرية الأوروبية وغير الأوروبية. الطريقة المقارنة ذات فائدة فكرية في البحث الأدبي، بل في جميع مجالات المعرفة، وللدراسات الأدبية المقارنة سيورة دينامية تستند إلى مضامين معرفية، ومحاولة التعقب والمسح الاستيمولوجي لمراحل تطور الدرس المقارن سواء أكان فرنسياً أو أمريكياً مسألة في غاية الأهمية، وكل مرحلة مقارنة تتميز ببروز براداي جديد يحاول تحيين الدرس، والذي هو دوماً بحاجة ماسة للتبادل بين التخصصات، وفضاء المقارنة يعتبر مجالاً حوار دائماً بين الحقول المعرفية المتعددة وطرائق الممارسة. والتفكير البيئي ينقلنا إلى حقبة جديدة من التفكير المقارن تحقيقاً لمبدأ الارتقاء والتطور من منظور دارويني. كما هو الحال في جميع أنواع الدراسات الأدبية، ويواجه الأدب المقارن الرفض وعدم التوافق بفضل الاتصال مع أعمال الآخرين، وهكذا ولدت أنواع فرعية جديدة. ويمكننا طرح السؤال التالي:

هل ننتظر نتائج إيجابية بفضل المدرستين الفرنسية والأمريكية في الأدب المقارن أمام موارد معرفية جديدة والاستعانة بها، وقدرتها على إخصاب أفق الدرس الأدبي المقارن؟

1. مفهوم الإبدال الاستيمولوجي:

1.1. الفتوحات المعرفية:

باعت محاولات الغرب لتجاوز العصر الوسيط بنجاح، بسبب تحقيق فتوحات عديدة على الأصعدة العلمية، اللاهوتية-الدينية، الجغرافية، الفلسفية...سأهم فيها بحارة، جغرافيين، علماء، فلاسفة، رجال دين...كل هذا سهل للغرب بالقفز نحو عالم مفتوح وهو إبدال معرفي جديد هجر من خلاله الأوروبيين التصور الفلكي اليوناني القديم-بطليموس (Ptolémée) (الأرض مركز العالم)(géocentrisme) واستبداله بنموذج جديد (Paradigme de Copernic) (براداي كوبرنيك) (للأرض كوبرنيك) (Copernic) (الشمس مركز العالم) (héliocentrisme).

في الحقيقة كانت قفزة هائلة للغرب خاصة في المجال العلمي، تبعها هزات علمية ارتدادية سمحت لأوروبا لوضع القطار الحضاري على السكة الصحيحة، وكان نيوتن (Newton) بحق عالماً بارزاً دفع العلم الغربي الحديث إلى الأمام بنظرية حول "قانون الجاذبية" (loi de gravitation) (Paradigme de Newton) (براداي نيوتن)، ثم توالى الاكتشافات حتى وصلت إلى أينشتاين (Einstein) ونظريته التي تتمحور حول (النسبية العامة) (Relativité générale) (Paradigme d'Einstein) (براداي أينشتاين)، فتوحات علمية، كل واحد من تلك الاكتشافات هو "نموذج فكري جديد" نقل الغرب من عهد إلى عهد جديد نتج عنه تطوراً حضارياً ملفتاً للانتباه. والأمر نفسه حدث في مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية.

1.2. الدرس الأدبي والنموذج الفكري

لقد أسهمت هذه التحولات الكبيرة وامتدت إلى الأدب والدراسات الأدبية، وفي السياق ذاته تفتظن النقاد الفرنسيين إلى أهمية استدعاء المناهج العلمية من العلوم الطبيعية وتوظيفها في حقل النقد الأدبي لإعطائه صبغة علمية، ولعبت الفلسفة الوضعية والتجريبية دوراً أساسياً في تطوير العلوم الإنسانية والاجتماعية. كل هذه العناصر التي تحمل تصورات، وخلفيات انصهرت في بوتقة القرن التاسع عشر وأغنت الدراسات الأدبية عموماً، النقد الأدبي، التاريخ الأدبي، والأدب المقارن خصوصاً.

وعرف الدرس الأدبي المقارن هزات على مر تاريخ تطوره، وعملت النظريات المعرفية وتطبيقاتها جاهدة لمواكبة التغييرات ساعية لتطوير الدراسات الأدبية المقارنة والارتقاء بها.

البراداي (paradigme) مصطلح من إبداع توماس صاموئيل كون (Thomas Samuel Kuhn) (1922 - 1996) جاء في كتابه المثير للاهتمام "بنية الثورات العلمية 1962"، وهو يُستخدم للإشارة إلى الإطار أو النموذج الفكري الذي يستخدمه الباحثين في ميدان العلوم الحقة والعلوم الإنسانية والاجتماعية لتفسير وتنبؤ وفهم الواقع الذي

يخطط بنا. في الثقافة والمجتمع، يمكن أن يشير البراداييم إلى النظام القيمي والمعتقدات التي تحدد كيفية تفاعل الناس مع بعضهم البعض ومع العالم الخارجي.

ويشير البراداييم في حقل الدراسات الأدبية عموماً والدرس المقارن خصوصاً إلى النظريات والممارسات التي يتبعها الدارسون في البحث المقارني، والتي تُعتبر في مرحلة تاريخية ما مقبولة وموثوقة من طرف الهيئات العلمية الأكاديمية حتى تبرز متغيرات جديدة في المجال المقارني تحفز المقارنين على إيجاد إبدال معرفي جديد أو النموذج الفكري. تغيير البراداييم يمكن أن يحدث عندما تواجه الفرضيات والنظريات القائمة تحديات كبيرة أو أدلة جديدة تجعل من الضروري إعادة التفكير في النموذج الفكري القائم. هذا يمكن أن يؤدي إلى ثورات فكرية أو اجتماعية، حيث يتم استبدال البراداييم القديم بأخر جديد.

من الضروري في دراسة تاريخ الدراسات الأدبية المقارنة البحث عن الإبدالات المعرفية التي طرأت عليه عبر تاريخ تطوره طبعاً مطبوع عبر مراحلها بالمناخ الفكري الذي ساد في كل عهد. فكل مدرسة لا تشتغل في فراغ، وإنما تكون دون شك مدعومة بخلفيات فكرية توجه أفكارها نظرياً وعملياً، فهنا وجهان لعملة واحدة لا يمكن تفضيل جانب على جانب، فتوفيق بينهما ضروري.

2. الفصل بين الأدب والدرس الأدبي

استطاع رينيه ويليك بدرجة كافية التمييز بين الأدب والدرس الأدبي، وذلك بسبب المامه بالمعرفة في الميدان المتخصص فيه، وقد رأى بدقة متناهية: "نوعان من النشاط يتميز أحدهما عن الآخر، الأول نشاط خلاق، فهو فن، بينما الآخر إن لم يكن علماً بأدق معاني هذه الكلمة، فهو ضرب من المعرفة أو التحصيل"¹. حاول أن يفصل بين الفضاءين، وهو يدفعنا إلى النظر إلى الأدب بصفته متجذراً في ميدان الإبداع الأدبي والفني، بينما الدرس الأدبي فيدانه بتمثل في البحث في الأدب، ولذلك يعتبر البعض الأدب المقارن علماً، والبعض الآخر يراه فرعاً من فروع المعرفة، يمكننا أن نسميها "دراسة".

والواقع أن عمل الدرس الأدبي يتسم بدرجة من التركيب والامتداد. ويفصح تفكير رينيه ويليك إلى تفريع الدراسات الأدبية إلى أنظمة، وفيما يلي ما انتهى إليه²:

أولاً، النظرية الأدبية وتعني دراسة مبادئ الأدب، وتصنيفاته، ومستوياته.

ثانياً، النقد الأدبي وهو مدخل ستاتيكي للدراسة الأدبية.

ثالثاً، التاريخ الأدبي يدرس الأدب في حركته.

ويبدو أن الأمور البحثية في الدرس الأدبي تجعل من الأدب مادة بحث تحاول وصفها، تحليلها، تفسيرها، وتأويلها من منظورات مختلفة. وكل دارس باحث يبدو أنه يجد متعة خاصة في إثبات أن علمه بالأدب يزيد الدرس غناً، وأنه يستطيع أن يعالج المادة معالجة أشد ذكاءً وكياسة. وهو ما يدفعهم إلى النظر أولاً من زاوية نظر أدبية، تهدف الدراسة المنهجية لطبيعة الأدب وطرق تحليله. والنظر ثانياً من منظور النقد الأدبي من أجل دراسة الأدب مناقشته، تقييمه، وتفسيره. وكذلك تسليط التاريخ الأدبي الضوء على الأدب وتتبع تطوره على ضوء التيارات الأدبية وعلاقات الأدب بالتاريخ. كل فرع يريد الإحاطة بطبيعة الأدب وملامسة مفصله من زاوية نظره استناداً إلى مقاربات علمية، والكشف عن معلومات غنية، والتي تتجلى في كل صفحة من صفحات كتب النقد، المحللين، والمقارنين، فالكل حاول الاستفادة من المناهج العلمية الموضوعية داخل العلوم الإنسانية والاجتماعية.

3. المدرسة الفرنسية التقليدية (المنهج الفرنسي في الأدب المقارن)

إن أسلوب التفكير الفرنسي في الأدب المقارن أو ما يطلق عليه أيضاً التيار التقليدي، أو التيار التاريخي، أو تيار الجيل الأول (جيل رواد القرن التاسع عشر)، مجموعة أفكار، رؤية علمية، وممارسة تتقاسمها جماعة علمية أنتجت بحوثاً في ميدان الدراسات الأدبية المقارنة.

لطالما كان مصطلح "الأدب المقارن" موضع جدل في المجال الأدبي والنقدي منذ ظهوره من قبل فيلمان في (1827-1828) ربما يكون أول من استخدمه، والأدب المقارن هو في الواقع تاريخ العلاقات الأدبية الدولية، كما أنه يستخدم كلمة "العلم" عند الحديث عن الأدب المقارن.

ويبدأ الأدب المقارن في فرنسا بـ: فيلمان (Abel Villemain 1828)، جان جاك أمبير (Jean- Jacques Ampère 1830)، فيلاريت شاسل (Philarète Chasles 1835)، بالدنسبرجر (Fernand Baldernsperger)، فان تيجم (Paul Van Tieghen)، كاريه (Jean Marie-Carré)، جويار (Marius François Guyard).

وقد صاغ جان جاك أمبير " (Jean- Jacques Ampère) (1864-1800) "أمبير" وظيفة الأدب المقارن في محاضرة ألقاها في السربون عن الأدب الفرنسي في علاقاته بالأدب الأجنبية و قال فيها ما يلي: "سنقوم أيها السادة بهذه المقارنة، فبدونها تكون دراسة التاريخ الأدبي ناقصة"³. يطرح هذا المقارن الفرنسي أفكاره الجادة بشأن ضرورة التعجيل لتصدي للمشكلة المطروحة، فالعبرة فيها بتقديم التفاصيل الدقيقة التالية⁴:

- هذا النوع من الدراسات قد سد فجوة في كتابة تاريخ الآداب القومية، تلك الثغرة التي خلفها التاريخ الذي حصر نفسه داخل حدود كل أدب قومي.
- إغفال الامتدادات والأبعاد الخارجية التي تتجاوز الحدود اللغوية القومية للآداب.
- إن تاريخ أدب قومي ما، كالأدب الفرنسي، لا يجوز له أن يقتصر على أحقاب ذلك الأدب وأجناسه ومدارسه الفنية والفكرية وأعلامه.. الخ، فتأريخ كهذا يغفل جانباً أساسياً من جوانب الأدب الفرنسي، ألا وهو علاقاته بالآداب الأوروبية كآداب شعوب.

1.3. الأدب المقارن والموروث الثلاثي

وانظر كيف يقيم دانييل- هنري باجو (Daniel-Henri Pageaux 1939)، في كتابه المعنون بـ "الأدب العام المقارن" الحجة الداعية إلى الاعتقاد ان الدرس المقارن في بدايته أثرت في نموه ثلاثية، يفصلها في الملخص التالي، بحيث لا يكون لدينا شك في القضية: "هكذا أخذ نوع جديد من البحث طريقه إلى الولادة في فرنسا في سنوات ظهور الرومانسية والليبرالية. يضاف إلى هذه الرعاية المزدوجة في النصف الثاني من القرن ظهور العلمية موروث ثلاثي وثقل لا يجب نسيانه أبداً من أجل فهم ظهور الحقل الجديد خلال الربع الأول من القرن العشرين. من حسن الحظ، أن مقارني اليوم بددوا كل شيء تقريباً ولم يحتفظوا من الدراسات والأعمال التي قدمت عبر أكثر من قرن إلا بالشيء الأساسي وهو روح الانفتاح على الآداب والثقافات الأجنبية"⁵، فمن الزاوية التاريخية هناك تشابك بين الأدب المقارن والموروث الثلاثي، يقدم كل ميراث وجهة نظر فريدة حول الظواهر الاجتماعية والإنسانية، وقد يختار الباحثون اتباع أساليب مختلفة اعتماداً على أهدافهم البحثية ومعتقداتهم النظرية.

ويجدر بنا أن نتذكر علاقة الأدب المقارن بالمدرسة الرومانسية، وقد أجاد عبد الرحمن بدوي الوصف النهائي لذلك التأثير في العناصر الموالية⁶:

- كان رجالها رجالاً علميين لا يقيمون للقوميات وزناً ولا يعترفون للحدود بقيمة، ومن أجل هذا فقد ألقوا على عاتقهم مهمة فتح أبواب الآداب الأجنبية لألمانيا كي تأخذ منها بأوفى نصيب.
- قد تأثر جيتيه بهم ، و حلم هو بدوره بأن يصبح للإنسانية أدب واحد مشترك تمده روافد الأمم جميعها ، قديمها وحديثها . بمباهها العذبة الصافية . وحاول أن يجمع في نفسه بين آداب الأمم جميعها ، فبدأ بالأمم الأوروبية يتأثر كبار أدبائها ومفكرها .

والإرهاصات الأولى للأدب المقارن كانت ممثلة في شخصيات وازنة تحمل بالفعل موقفاً يرفض الأولوية الوطنية، وهو موقف إنساني ضد أنصار تأكيد تقوية الثقافة الوطنية، العصبية القومية، والشوفينية الأدبية في ظل الحروب: فولتير (Voltaire)، روسو (Rousseau)، ديدرو (Diderot)، مدام دي ستايل (Mme Staël)، غوته (Goethe)، هم أولئك الذين ناضلوا ضد القومية الثقافية (le nationalisme culturel). ومن موقف هؤلاء الأسلاف ولدت روح العالمية أو الكوسموبوليتية (l'esprit de cosmopolitisme)، والليبرالية (libéralisme) التي تنكر كل تفرد وكل انعزالية (isolationnisme) والتي تتطور في جميع أنحاء أوروبا منذ عصر التنوير، فكان

ظهور هذه الدراسة قد واجه عقبة القومية، حيث بدأ برنامج الدراسة في مجال الأدب المقارن في منتصف القرن التاسع عشر، مع الاهتمام بالمقارنات الأدبية والكشف عن عناصر الاتفاق والخلاف بين الأدباء المقارنين. إن خضوع الدراسات الأدبية المقارنة الفرنسية-اللاتينية للنزعة "الوضعية" (Positivisme)، وهي فلسفة ترى أن المعرفة الصحيحة هي التي تستند إلى قاعدة تجريبية أو إمبيرية قابلة للمراجعة بصورة عبر ذاتية. أما المعرفة التي تقوم على التخمين والحدس والتفكير والمقارنة فقط، فهي معرفة غير موثوقة ولا يعتد بها. انتقلت هذه النزعة إلى الدراسات الأدبية أيضاً، ودعا أنصارها، وأبرزهم الناقدان الفرنسيان سانت بيف (Sainte Beuve) و تن (H) Tain إلى تحويل تلك الدراسات إلى علم موضوعي⁷. تؤكد الوضعية هذا النموذج على الموضوعية والقياس الكمي والمنهج العلمي الصارم، ويسعى الباحث الوضعي إلى ملاحظة وقياس الظواهر الاجتماعية تجريبياً، باستخدام أساليب مثل الدراسات الاستقصائية والتجارب الخاضعة للرقابة.

ونحن لا ننكر إطلاقاً دور "المنهج التجريبي في دراسات التأثير والتأثر، وذلك بعدم الاكتفاء بتخمين وجود تأثير، بل البرهنة على وجوده بالأدلة والوثائق الملموسة التي لا تدع مجالاً للشك"⁸. وتضي المدرسة الفرنسية "على حصر الدراسة الأدبية المقارنة في إطار العلاقات التاريخية الموثقة بين طرفي المقارنة الأدبية وذلك من أجل الحفاظ على الطمأنينة العلمية والمنهجية الأكاديمية وقد أدى هذا الموقف المتشدد إلى عدد من أوجه القصور والمآخذ على هذا النهج منها: توقف الدرس الأدبي المقارن عند حد تجميع المادة الأدبية الخام التي استقهاها الأديب من أدب قومي آخر فيتوقف الدارس المقارن عند رصد المادة الأدبية الخام التي استقهاها"⁹، وتأثر الأدب المقارن بأمثال هذا الموقف التجريبي.

وأغنى الفكر الليبرالي الدرس الأدبي بصفة عامة في القرن التاسع عشر بمفاهيم وأفكار ذات بعد عالمي ولدت وتطورت في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية مثل الديمقراطية، والحريات الدينية والمدنية والتجارة الحرة...

2.3. مزايا المدرسة الفرنسية التقليدية:

كان للمدرسة الفرنسية التقليدية مزايا تميز حقله العلمي ومنهجيته، التي لها أسس وخلفيات نظرية وفلسفية، نعددها على النحو التالي¹⁰:

- النزعة التاريخية في دراسة الأدب، تلك النزعة التي انتشرت على نطاق واسع في فرنسا وأوروبا على امتداد القرن التاسع عشر، كما يرى أصحاب هذه النزعة أن تاريخ الأدب هو، في جزء كبير منه تاريخ مصادره ومواضعه ومواده الأدبية التي تنتقل داخل الأدب القومي وبين الآداب القومية بصورة يمكن دراستها وتتبعها بالوثائق والأدلة.
- الدراسة المقارنة لتلك الآداب تدل على وجود علاقات تأثير وتأثر بينها على أساس من السببية الصارمة. إن انتقال مادة أدبية من أدب إلى أدب قومي آخر ليس مسألة عشوائية، بل هو علاقة تاريخية قائمة على السببية، وهذا ما على الأدب المقارن أن يبرهن عليه بصورة لا تقبل الجدل، أي أن يبين مصدر التأثير وواسطته ونتأجه.
- وقد سبق أن أشرنا إلى أن فرنسا كانت مهد الأدب المقارن، فهي أول من قدر قيمة التراث المشترك بينها وبين الدول الأوروبية الأخرى، وهو ما يشكل أساس المقارنة.
- منذ البداية، ركز المقارنون الفرنسيون على تاريخ الأدب، ودراسة المؤثرات، والبحث عن الحقائق، التي أصبحت فيما بعد سمة ما نسميه "المدرسة الفرنسية". لطالما اعتُبرت المدرسة "الفرنسية" مرتبطة بشدة بالتاريخ الأدبي، ودراسة التأثيرات، والبحث عن الحقائق.
- وهكذا فإن برامج الأدب المقارن الفرنسي تنص على ما يلي¹¹:

- يمكن معرفة ما صدره أدب قومي معين إلى آداب قومية أخرى، وما استورده منها. وبالطبع فإن التصدير أفضل من الاستيراد، في الثقافة أيضاً، والطرف المصدر أو المرسل هو الأفضل والأقوى، وهو صاحب الفضل والأيادي البيضاء على الطرف المستورد المستقبل الآخذ المتأثر.

- خدمت دراسات التأثير والتأثر نزعة التباهي والتعالي القومي والإقليمي، وصار أهل كل أدب حريصين على إظهار تأثير أدبهم القومي في الآداب الأخرى وفضله عليها. وأحرز الفرنسيون قصب السبق في هذا المجال. فقد

مكنتهم دراسات التأثير، التي كانوا قد ابتكروها وطوروها ورعوها، من إظهار ضخامة التأثير الذي مارسه الأدب الفرنسي على الآداب الأخرى، أوروبية كانت أم غير أوروبية.

- دراسات التأثير أظهرت أن تأثير الآداب الأوروبية في الآداب غير الأوروبية كبير جداً، وهو يفوق بكثير تأثير الآداب الأوروبية بآداب القارات الأخرى. في الحالة الأولى خدمت دراسات التأثير نزعة التعالي الثقافي الفرنسية، وهي نزعة قومية توسعية شكلت في الماضي مقوماً من مقومات الإيديولوجيا الاستعمارية الفرنسية.

- ويمكن حصر البحث المقارن في ما يلي 12:

- دراسة العلاقات الخارجية للأدب.

- دراسة الصلات بين الآداب القومية لأخرى بشرط اختلاف اللغة ووجود صلات تاريخية تدعم التأثير والتأثر مباشرة.

- ومنهجية القرن التاسع عشر هي كالآتي 13:

- تختزل العمل الأدبي إلى بؤرة يجمع فيها المؤثرات الخارجية.

- أو إلى مصدر إشعاع التأثيرات تنبعه دخول البلدان الخارجية.

- الأعمال الأدبية حاصل جمع المصادر والتأثيرات.

كما يتسم المنهج الفرنسي بالنزعتين القومية والتاريخية.

والخصيصة القوية من خصائص المدرسة الفرنسية هي "علاقة الأدب المقارن بالنقد الأدبي تبدو من هذا المنظور علاقة تقسيم عمل، فلكل من المنهجين مضاره المحدد الذي يعرف تخومه بدقة، فعلماء الأدب المقارن ليسوا نقادا، والنقاد ليسوا مقارنين، وما يفصل الأدب المقارن عن النقد الأدبي لا يقتصر على حدود مضار كل منهما، بل يشمل المنهجية والطريقة أيضاً" 14، لم تستطع هذه المدرسة التحرر من هذا المنظور الصارم.

4. المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن

1.4. أزمة الأدب المقارن

فاجأ ويليكل أنصار المدرسة الفرنسية ببحث غير متوقع قدم "إلى المؤتمر الثاني للأدب المقارن بمدينة تشابل هيل الأمريكية عام 1958م، وفيه أشار إلى أزمة الدراسات الأدبية عموماً ودراسات الأدب المقارن خصوصاً، وناد بإعادة النظر في أهداف هذه الدراسات ومنهجها" 15، حظي نقده بالقبول داخل الأوساط العلمية شيئاً فشيئاً، وأصبحت مدرسته إبداعاً معرفياً جديداً أو نموذجاً فكرياً جديداً لقي إقبالا في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، والأقطار غير الأوروبية، في نظرها " مجرد التشابه في الأنماط الأدبية أو الموضوعات أو الأفكار بين أدبين مختلفين أو بين مجموعة من الآداب المختلفة هو دافع قوي إلى قيام دراسات مقارنة تنهج نهج النقد الجمالي في تقويم الإبداع الفني وتفتح بالمناسبة آفاق فكرية وفنية مشتركة قد تصلح لخلق علاقات جديدة بين الأمم التي يعينها بناء مجتمع عالمي على أسس الاتصال والتقارب والتعاون والتكامل" 16. ويصبح كثير من المقارنين يفكرون ويشغلون من خلالها، و "تمسكهم بالحقيقة العلمية الموثقة بكل سبل التوثيق والتحقيق والرافضة لكل تكهن أو ظن أو اعتقاد وحرصهم على الموضوعية المنهجية البعيدة عن كل حكم تقويمي أو تفسيري ذاتي للعمل الأدبي فقد أدى هذا الموقف إلى اللبس والدوران حول العمل الأدبي وجمع كل معلومة تاريخية أحاطت بالأثر الأدبي دون أن يغوصوا في أعماق العمل الأدبي نفسه ومن ناحية أخرى ابعدوا النظر في جاليات العمل الأدبي الأكاديمي المحترم" 17، ويحاولون الإجابة عن الأسئلة ذات صلة بالدرس المقارن الأمريكي.

وكانت تقودهم تصورات ونظريات ويليكل ومعاونيه، ولكن خارج إطار المدرسة الفرنسية "الإبدال السابق" الذي انقلب عليه وعارضه معارضة شديدة، وقد "أضاف النقاد الجدد الأمريكيون بعداً جديداً للدراسة الأدبية المقارنة يتمثل في قياس الأدب ومقارنته بشتى الفعاليات الإنسانية الأخرى فيقيس الفن في العمل الأدبي على الفن في لوحة موسومة أو منظومة موسيقية أو أثر معماري أو تمثال منحوت أو فيلم سينمائي ومن هذه المقارنة يمكن إدراك الفن في العمل الأدبي المفرد من غيره من الفنون السمعية والبصرية الأخرى ويتمثل أيضاً في مقارنة الأدب بصورة التعبير الأخرى من فلسفة

وتاريخ وسياسة وعقائد ... الخ و من عقد هذه المقارنات نستطيع ان نستخلص خصوصية التشكيل الفني والجمال للظاهرة الأدبية و تتضح معالمها وتكون اقدر على تفسيرها او تحليلها¹⁸. ان القفز والهجرة من "إبدال إستيمى سابق" نحو "إبدال إستيمى جديد" يقوم على " تخلى الأدب المقارن عن كونه فرعاً مكملاً لتاريخ الأدب القومي ويعني بالعلاقات العرضية بين الأدب القومي وغيره من الآداب الأجنبية إلى أن يكون في صلب النقد الأدبي ونظرية الأدب"¹⁹.

إن ما قام به رينيه ويليك في الأدب المقارن هو تفكير خارج الصندوق، هي عبارة مثيرة للجدل تستخدم لوصف القدرة الفائقة لبعض المفكرين المتميزين على النظر إلى بعض المسائل من زاوية نظر مختلفة وغير تقليدية، وتغريدا خارج السرب، وبعيداً عن المفاهيم والأفكار السابقة المستهلكة في تخصص الدراسات الأدبية المقارنة. وذلك بحثاً عن أسلوب وطريقة تفكير مبتكرة لا ابتكار حلول للمشاكل تواجه المقارنة في العالم.

لذا شكك ويليك المعتقدات الفرنسية السائدة في الدراسات المقارنة، وحاول البحث عن خطوات تفكير خارج الصندوق الفرنسي، وبلورة منظورات وتوجيهات جديدة متكيفة مع البيئة الأمريكية، والتي تدرس الأدب دراسة تختلف عن البحوث السابقة ذات المنشأ الأوروبي. مما أدى إلى حل مشاكل مقارنة والعثور على حلول مبتكرة غير تقليدية للمسائل التي لم تعالجها المدرسة الفرنسية.

إن تميز رينيه ويليك وتنافسيته في ميدان الدرس الأدبي عزز من دون شك من كفاءات التفكير المقارني والتكيف مع تطورات الحاصلة في العالم بعد الحرب العالمية الثانية وأخذ الولايات المتحدة الأمريكية دور الريادة، بل وجعل من ويليك نموذجاً على التفكير خارج الصندوق. إن تبني التفكير خارج الصندوق يمكن أن يكون مفتاحاً للتقدم والنجاح في مختلف المجالات.

2.4. الأسباب السياسية والمعرفية المؤثرة في ميلاد المدرسة الأمريكية:

لذلك ما إن ظهرت المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن كـ "براداييم جديد" أو كـ "إبدال إستيمى جديد" سطع نجمه في سماء الدرس الأدبي الغربي بداية من النصف الثاني من القرن العشرين، فقد ساهمت أسباب سياسية ومعرفية في ميلاد المدرسة الأمريكية، ولم يصل الأدب المقارن إلى مبتغاه، إلا بعد الحرب العالمية الثانية لسببين سياسي، ومعرفي (épistémologique).

أولاً، الجانب السياسي:

- ارتبط بحركة تحرير الشعوب المستعمرة، و سقوط الإمبراطوريات الكبرى ، كان سببا في استقلال دول غير أوروبية مستعمرة.

- العمل من أجل افتكاك حقوق الإفريقي الأمريكي بالولايات المتحدة الأمريكية، وذلك ردا على عنصرية البيض.

- حركة النسوية، والنضال من أجل افتكاك حقوق المرأة: النقد النسوي، والأدب النسوي، ساهما معا في إدراج المرأة في التاريخ الأدبي.

ثانياً، الجانب المعرفي

- القطيعة المعرفية، ونزع الأسطورة عن المفاهيم السابقة الخاصة بالنقد الأدبي، مرتبط بميلاد مدارس نقدية وأدبية جديدة.

- طورت البنيوية الارتباط بالمعارف الأخرى.

- أوروبا العجوز تمثل العالم القديم، والولايات المتحدة الأمريكية تمثل العالم الجديد.

فالقفز بالدرس الأدبي نحو أفق جديد جعل من " الدراسة الأدبية المقارنة أداة في يد دارس الأدب تساعد في الغوص راسيا في أعماق الظاهرة الأدبية عبر الحدود القومية وعلى مستوى جميع الآداب في شموليته و كليتته"²⁰. في مقابل الاتجاه التاريخي الذي يطلق عليه اسم المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن، ففرنسا صورة قديمة لا تبحث أبدا خارج إطار

البرهنة على وجود صلة تاريخية موثقة بين طرفي المقارنة، والتركيز على الوسائط، لم تستطع هذه المدرسة التقليدية تجاوز هذا الشرط التعجيزي.

وسعى ويليك إلغاء هذا الشرط التقليدي الموروث، والاستناد الى مقولات جديدة، يمكننا تلخيصها في العناصر الموالية²¹:

1. **مقولة أخلاقية:** ترى جميع الآداب والثقافات المختلفة متساوية في القيمة والعطاء وترفض مبدئياً تميز أدب على أدب وسيطرة ثقافة على ثقافة.

2. **مقولة سياسية:** تنادي بالانفتاح على الآداب والثقافات المختلفة وتفهم التراكم الثقافي والأدبي المختزن عبر مسيرة التاريخ الإنساني.

3. **مقولة نقدية وتنظيرية:** تقول بوحدة الظاهرة الأدبية على اختلاف فضاءاتها الزمانية والمكانية واختلاف بتشكيلاتها اللغوية واختلاف حدودها القومية.

أراد الأدب المقارن عبر الأطلسي الاعتماد على مبدئين: ويعكس المبدأ الأخلاقي موقف أمة أمريكية منفتحة على العالم، تحبذ التعاطف الديمقراطي، وحرصة كل الحرص على منح قيمة لكل ثقافة أجنبية، ولكنها في الوقت نفسه أكثر وعياً بجذورها الأوروبية الغربية. يسمح المبدأ الفكري للأميركيين باتخاذ الخطوة اللازمة للحفاظ بغيرة على القيم الجمالية والإنسانية للأدب.

وفتحت الدراسات المقارنة الأمريكية أبوابها لتلقي عناصر من تخصصات أخرى، وهي بمثابة دم جديد ضخ في شرايين الدرس المقارن من أجل تطويره وإكثارت ثمراته.

3.4. الأدب المقارن والدراسات البيئية:

كل عصر له طرق تفكيره، وكل مرحلة تستند إلى عقلية، أعراف، سلوكيات، مناهج، تصورات، قوانين، مذاهب، تميز جماعة علمية، مؤسسة بحثية، في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية عموماً، والدراسات الأدبية خصوصاً. والباحث المقارن منغمس ويتحرك داخل اطار مفاهيمي يملئ عليه الرؤية والمنهج، وهم مكفون بالحفاظ على التراث النقدي الذي خلفه الشكلايون الروس، وقصد به تلك البحوث التي شكلت تحولاً بدأه الشكلايون الروس وواصله النقد الجديد، البنيوية، والاتجاهات ما بعد البنيوية، وهو تحول شكل منعطفاً حاداً في تاريخ الفكر النقدي في العالم، فقد نقل مركز ثقل الدرس النقدي من العلاقات الخارجية للعمل الأدبي (أي علاقاته بشخصية الأديب وسيرته وعلاقته بالبيئة الاجتماعية والثقافية...) إلى العلاقات الداخلية للعمل الأدبي، أي إلى بنيته الفنية والفكرية والجمالية... إنه نموذج لا يولي العلاقات الخارجية للأدب اهتماماً كبيراً، ويولي جل اهتمامه لأدبية الأدب، أي تلك الخصائص التي تجعل منه أدباً، فأهمية أي مقارنة للأعمال الأدبية تكمن في مدى قدرتها على جعلنا نفهم الجوهر الأدبي لتلك الأعمال، أي قيمتها وبنيته الأدبية، بصورة أفضل²²، وبالتالي يعكس أثناء ممارساته البحثية العلمية كل ذلك باختصار هو مؤطر داخل مؤسسات، مراكز، نوادي، حركات ومدارس...تشكل للدارس المقارن ممها كانت توجهاته إطاراً مفاهيمياً وتوفر له الأدوات الإجرائية. وأسلوب التفكير الأمريكي في الأدب المقارن افكار ورؤية علمية فيقيس " الفن في العمل الأدبي على الفن في لوحة مرسومة او منظومة موسيقية او أثر معاري او تمثال منحوت، أو فيلم سينمائي"²³. وممارسة تنقاسمها جماعة علمية أنتجت بحوثاً في ميدان الدراسات الأدبية المقارنة، عهد تعددية التخصصات، تداخل التخصصات، الحقول المتداخلة محصلة لحقل دراسة يحاول عبور الحدود التقليدية الفاصلة بين التخصصات الجامعية الأكاديمية والمذاهب والمدارس، وذلك بسبب بروز احتياجات جديدة، ما يمكن تسميته بالتوفيق بين المذاهب (syncretisme) نوع من التوليفة، أو تقاطع، تلاقي، تشابك، تقارب بين العلوم، تصور مركب يؤمن بالتكامل المعرفي بين العلوم، وهذا المنظور المعقد والمثمر أضفى حتمية يفرضها العصر الراهن استجابة لمطالبات المنهج العلمي المعاصر.

إن الرغبة في إعادة النظر في الأدبيات المقارنة الفرنسية ومن سار في فلكها يستدعي تضافر جمود متخصصين في الميدان متشبعين بفكر نقدي تقدمي مستند الى توليفة بين المناهج المتداخلة وزوايا نظر تخصصات متعددة، بهدف تطوير حقل الأدب المقارن على الصعيدين النظري والإجرائي، وإخصاب الدراسات الأدبية المقارنة ومحاولة توسيع حدودها.

إن القطيعة مع الممارسات المقارنة الفرنسية التقليدية السابقة والتي طُبعت القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين وأغلب دراساتها تحركت في سياق استعاري هيمن عليه المنظور التاريخي الوضعي، فإعادة القراءة في الميراث الفرنسي ورشة تصهر بداخلها حقول ومعارف متعددة هدفها الدفع بالأدب المقارن إلى مرحلة جديدة يغلب عليها الانفتاح والتفاعل مع أنماط المعرفة المختلفة. وتتفق الموسوعات والمعاجم والقواميس على تعريف الدراسات البينية (L'interdisciplinarité) بأنها طريقة أكاديمية تتضمن دمج الأفكار والمفاهيم من مجالات معرفية مختلفة لتكوين فهم شامل ومعمق حول موضوع دراسة محدد. هذا الأسلوب منظورٌ يتجاوز الحدود التقليدية للحقول الأكاديمية المنفصلة. تحاول المدرسة الأمريكية تجاوز المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن، وذلك بمعالجتها بطريقة متعددة التخصصات، والجمع بين أساليب تفكير مختلفة، بهدف توسيع الرؤية والإحاطة بطبيعة الموضوع الأدبي والفني وإضاءة مفاصله. إن هدف الدراسات البينية التواصل بين الفضاءات المعرفية المختلفة وبناء الجسور بينها والرفع من كفاءات التفكير النقدي في ميدان مركب يدمج الدرس الأدبي المقارن، الفلسفة، علم النفس، علم الاجتماع، السياسة، الفنون، السينما، والإعلام... كمجالات اشتغال الدراسات البينية.

إن التعاون والتشابك بين الباحثين في مجالات مختلفة يثري الدرس المقارن وينتج تصورا جديدا يطلق عليه تسمية التكامل المعرفي، بإمكان هذا التفكير أن يزود الباحث المقارن نظريا وإجرائيا بمهارات جديدة مبتكرة تساعد في إغناء نتائج البحوث المقارنة المتكيفة مع التصورات الأمريكية المعاصرة الفعالة في مواجهة التحديات الراهنة بأساليب بينية تواءم العصر.

- خاتمة:

في الختام، تمكنا من التوصل إلى العديد من النتائج والاستنتاجات التي قد تكون مهمة، ويمكن ذكر بعض من النتائج وهي كالآتي:

- قد يكون الهدف من الدراسة المقارنة هو تحديد أوجه التشابه والاختلاف في مجالات الفن والمعرفة، وتحديد العوامل المسؤولة عن هذه التشابهات وكذلك هذه الاختلافات.
- تحاول هذه الدراسة المقارنة إيجاد روابط محتملة بين الآداب المختلفة، لإجراء مقارنات فنية أو أدبية. وتقدم الدراسات المقارنة صورة شعب معين من خلال أدبه، وتتيح التعرف على ومتابعة ظواهر أو حركات معينة في آداب عديدة أخرى. كما أنها تبحث عن سمات التأثير وتحدد العوامل المسؤولة عن هذا الانتقال بين الأدبين.
- تساعدنا الدراسات الأدبية المقارنة على فهم الآداب الأجنبية، ومعرفة سمات الآخر، وأيضاً أدبنا القومي.
- الدراسات الأدبية المقارنة تتقدم وفق فكرة التراكمات المعرفية والممارسات الإجرائية المؤطرة ضمن مدارس خاضعة لمنهج فكري يميز يسود في المؤسسات العلمية.
- البحث العلمي الممارس من طرف المنهج الفرنسي في الأدب المقارن مشروط بمجموعة من المفاهيم وليدة القرن التاسع عشر، وهذه الأفكار تشكل محاضن علمية حقيقية تحتضن المقارن وتوجهه.
- ولدت التيار التقليدي في الأدب المقارن من رحم التاريخ الأدبي، بحث استكشافي في علاقات الأدب القومي بالآداب الأخرى، ومحاولات وصف انتقال من أدب إلى أدب، كالأصولات الأدبية، الترجمة، والرحلات...
- يتميز التيار التاريخي أو تيار الجيل الأول بمضامين ايستيمولوجية تغرف من الرومانسية، الليبرالية، العلمية، والتجريبية، وتبني جدران بينها وبين النقد الأدبي ونظرية الأدب، لتصبح تخصصا مغلقا وصلت إلى حد الاكتفاء.
- شكل ميلاد المنهج الأمريكي في الأدب المقارن ابدالا معرفيا وحدثا طبع القرن العشرين. والمسح المفاهيمي لهذه المدرسة يؤكد افتتحها على الحقول المعرفية الأخرى، لتشكيل منهجا متكاملًا لدراسة الأدب دراسة مقارنة.
- أضفى الاتجاه الأمريكي اتجاه بحثي بيني حديث ومعاصر يجمع مناهج العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية والفنون، وبالتالي طريقة الممارسة المقارنة ممارسة بينية بامتياز.
- تشجيع التبادلات بين التخصصات، هو تكامل معرفي هدفه ربط الجسور بين العلوم المختلفة.

- هناك دوما حاجة ملحة لتطوير الدراسات الأدبية المقارنة عن طريق تبني براداييم جديد يجدد روح الدرس على الصعيدين النظري والتطبيقي لإغناء نتائج البحث المقارن.
- لماذا الإصرار على العمل بشكل منفصل، في حين أن العمل الجماعي يؤدي إلى حالة من التكامل، من خلال الجمع بين مقاربات من مجالات مختلفة، يجب أن يكمل كل منهم الآخر.
- إن إخصاب الدراسات الأدبية المقارنة وتوسيع افقها لا يقتصر على المدرستين الفرنسية والأمريكية فقط، بل ساهمت أيضا المدرسة السلافية أو المنهج السلافيا و الاتجاه الماركسي في الأدب المقارن مساهمة فعالة أغنت الدرس بنتائج مثيرة للاهتمام حاولت فرض براداييم جديد حاول مساهمة التقدم العالمي في المجال من منظور التصور الماركسي.

- قائمة الإحالات:

- 1- رينيه ويلك، أوستن وارن، نظرية الأدب، تر: عادل سلامة، دار المريح، المملكة العربية السعودية، 1992، ص.23.
- 2- رينيه ويلك، أوستن وارن، نظرية الأدب، تر: عادل سلامة، ص.10.
- 3- أحمد شوقي رضوان، مدخل إلى الدرس الأدبي المقارن، دار العلوم العربية، بيروت، ط1، 1990، ص.ص. 14-15.
- 4- عبده عبود، الأدب المقارن: مشكلات وآفاق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ص.27.
- 5- دانييل- هنري باجو، الأدب العام المقارن، تر: غسان السيد، منشورات اتحاد كتاب العرب، ص.11.
- 6- جيته، الديوان الشرقي للمؤلف الغربي، تر: عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص.6-7.
- 7- عبده عبود، الأدب المقارن: مشكلات وآفاق، ص.26.
- 8- عبده عبود، الأدب المقارن، مشكلات وآفاق، ص.29.
- 9- أحمد شوقي رضوان، مدخل إلى الدرس الأدبي المقارن، دار العلوم العربية، بيروت، ط1، 1990، ص.25.
- 10- عبده عبود، الأدب المقارن: مشكلات وآفاق، ص.26.
- 11- عبده عبود، الأدب المقارن: مشكلات وآفاق، ص.30.
- 12- ينظر: يوسف بكار، خليل الشيخ، الأدب المقارن، منشورات جامعة القدس المفتوحة، 2008، ص.ص. 80-87.
- 13- ينظر: يوسف بكار، خليل الشيخ، الأدب المقارن، ص.ص. 80-87.
- 14- عبده عبود، الأدب المقارن مشكلات وآفاق، ص.ص. 27-28.
- 15- علي شلش، الأدب المقارن بين التجريبتين الأمريكية والعربية، دار فيصل الثقافية، الرياض، السعودية، ط1، 1995، ص.36.
- 16- زبير دراق، محاضرات في الأدب المقارن، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ص.60.
- 17- أحمد شوقي رضوان، مدخل إلى الدرس الأدبي المقارن، ص.18.
- 18- أحمد شوقي رضوان، مدخل إلى الدرس الأدبي المقارن، ص.22.
- 19- أحمد شوقي رضوان، مدخل إلى الدرس الأدبي المقارن، ص.21.
- 20- أحمد شوقي رضوان، مدخل إلى الدرس الأدبي المقارن، ص.21.
- 21- أحمد شوقي رضوان، مدخل إلى الدرس الأدبي المقارن، ص.ص. 20-21.
- 22- ينظر: عبده عبود، الأدب المقارن: مشكلات وآفاق، ص.48.
- 23- أحمد شوقي رضوان، مدخل إلى الدرس الأدبي المقارن، ص.22.

- قائمة المصادر والمراجع بعد الإحالات

1. أحمد شوقي رضوان، مدخل إلى الدرس الأدبي المقارن، دار العلوم العربية، بيروت، ط1، 1990.
2. جيته، الديوان الشرقي للمؤلف الغربي، تر: عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
3. دانييل- هنري باجو، الأدب العام المقارن، تر: غسان السيد، منشورات اتحاد كتاب العرب.
4. رينيه ويلك، أوستن وارن، نظرية الأدب، تر: عادل سلامة، دار المريح، المملكة العربية السعودية، 1992.
5. عبده عبود، الأدب المقارن: مشكلات وآفاق، منشورات اتحاد الكتاب العرب.
6. علي شلش، الأدب المقارن بين التجريبتين الأمريكية والعربية، دار فيصل الثقافية، الرياض، السعودية، ط1، 1995.
7. زبير دراق، محاضرات في الأدب المقارن، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر.
8. يوسف بكار، خليل الشيخ، الادب المقارن، منشورات جامعة القدس المفتوحة، 2008.